مجلة العلوم الإنسانية والحضارة ISSN 2661-7307
المجلد 06 ـ العدد 01 ـ السنة 2024 ص 20 – 37 EISSN 2773-4048
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/730

جوانب من الإصلاح الديني في الفكر الإسلامي

Aspects of religious reform in Islamic thought

د. محي الدين عباسي *

جامعة الزيتونة (تونس) *abbessimoheddine@yahoo.fr*

تاريخ الإرسال: 2023/03/29 تاريخ القبول: 2023/07/30 تاريخ: النشر: 2024/01/01

الملخص:

يحتوي الفكر الإسلامي على تراث خصب في مختلف جوانب حياة الإنسان ومنها الجانب المتعلّق بالإصلاح الديني، وحيث مرّ هذا الفكر بمراحل جمود وبأزمات مختلفة في حدة تأثيرها، لكنّه لا يلبث أن يستعيد حيويته بظهور جهود إصلاحية واتجاهات تصحيحية في سبيل تحقيق النهضة والتقدم، وذلك بهدف الخروج من الضعف والتخلف، وفتح أبواب الاجتهاد من أجل تهيئة أنظمة التفكير الإسلامي الموروثة للظروف الجديدة، لذا تتأكد الحاجة إلى معرفة نماذج من الإصلاح الديني في الفكر الإسلامي الساعية إلى تطوير مسار المشروع الحضاري في العالم الإسلامي، لتحقيق الوحدة والاجتماع على كلمة سواء في اتجاه التطبيق والممارسة، وضرورة تواصل الجهود والمبادرات الإصلاحية برؤى وتصورات فكرية جديدة وخاصة في عصرنا الحاضر، الذي يشهد فيه العالم المتقدم تحولات كبرى في مختلف مجالات حياة الإنسان.

الكلمات المفتاحية : الإصلاح، دين، نماذج، فكر، إسلام .

* المؤلف المرسل

Abstract:

Islamic thought contains a lush heritage in various aspects of human life, including one related to religious reform. And where this thought has gone through different stalemates and crises in their impact, But it does not recover with the emergence of reform efforts and corrective trends in the pursuit of renaissance and progress. with the aim of emerging from vulnerability and underdevelopment and opening the doors of diligence in order to create inherited Islamic thought systems for new conditions Thus, the need to know models of religious reform in Islamic thought seeking to develop the course of the civilization project in the Islamic world is confirmed. To achieve unity and meeting on a word both in the direction of application and practice and the need to pursue reform efforts and initiatives with new intellectual insights and perceptions, especially in today's era, in which the developed world is undergoing major transformations in various areas of human life.

Keywords : *Reform, religion, models, thought, Islam.*

مقدمة :

مرّ الفكر الإسلامي بمراحل تطور تجسدت في حركات واتجاهات تصحيحية بهدف الخلاص من براثن الجمود والتقليد، ومعالجة أسباب التخلف والانحطاط، والإسهام في الحضارة الحديثة، مع الحفاظ على الهوية الإسلامية، ومواجهة تحديات الاستعمار الغربي الناشط في كل الاتجاهات، وتحقيق إصلاح شامل في اتجاه اللحاق بركب التقدم ومنه الإصلاح الديني .

وعلى الرغم من الجهود المبذولة للإصلاح في هذا الاتجاه من العلماء والمفكرين والمصلحين بمختلف توجهاتهم ورؤاهم ومنطلقاتهم وأهدافهم وبحسب أوضاعهم ونظرتهم للحضارة الغربية ومنها التي انبثقت خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فإنّ هذه الجهود لم تحقق الهدف المطلوب المتمثل في الانعتاق المنشود من قيود التخلف والجمود، بسبب طبيعة التحديات الداخلية والخارجية، والإحباطات الكثيرة التي واجهها المسلمون في تاريخهم الحديث والمعاصر، فضلا عن التشبث بمبادئ ومفاهيم عصور أوسطية لاسيما من الناحية الدينية تمنع من التطور والتقدم .

والحق أنه من الصعوبة تحديد مجال الإصلاح الديني في الفكر الإسلامي نظرا لتشعب ذلك، إذ تنوع واختلف باختلاف التوجهات، والمنطلقات والمقاصد، ومدى تجاوبها مع الظروف العامة، وتعدد زوايا النظر وطغيان النزوع الإيديولوجي في تقويم جهود الإصلاح الديني المنجز، لذاسنتعرض إلى حوانب منه.

كما أن الوضعية الراهنة للعالم الإسلامي تجعلنا نطلع على رؤى العلماء والمصلحين في المجال الديني، وتتبع مسارها والكشف عن الجوانب التي أتت عليها، وتقييمها للاستفادة منها في اختياراتنا الحاضرة والمقبلة، لأنّ كل أُمّة تحتاج حين تتطلع إلى المستقبل أن تنظر في ماضيها القريب أو البعيد، وتقيّم ما سبق، وتعيد إنتاجه فتترك ما تترك، وتضيف ما تحتاج إليه في ضوء تطور العصر.

وأَنْطلقُ قبل إبراز جوانب من الإصلاح الديني في الفكر الإسلامي بالإشارة أولا إلى تحديد عدد من المصطلحات والمفاهيم باعتبارها ضرورة علمية ومنهجية.

1-الإطار المفاهيمي :

إذا كانت الدّلالات المعجميّة للمفردات والألفاظ ضرورة علميّة ومنهجيّة فأنني سأحدد مفهوم عدد منها كالآتي :

1.1 الإصلاح :

الإصلاح من فعل صلح يقال صلح ويصلح صلاحا، والإصلاح مصدر أصلح وجمعه إصلاحات وهو تقويم وتغيير وتحسين نقول « إصلاح ذات البين : مصالحة المتخاصمين، وما بينهما من عداوة وشقاق ». [1] والصلاح الحصول على الحالة المستقيمة النافعة، والإصلاح جعل الشيء على تلك الحالة، وهو نقيض الإفساد، وتحسين الوضع بإزالة الخلل والإعوجاج والإحسان فيه أو إرجاع الشيئ إلأى حالة اعتداله.

والإصلاح هو التغيير والتحسين والتطوير والانتقال إلى وضع أفضل وأرقى،[2] وهو « تغيير الأحوال من الشيء إلى الأحسن ومن الفوضى والمخالفة إلى الالتزام والاستقامة »،[3] و « إعادة شيء ما، أصابه العطل والخلل، إلى وضع جيد ».[4]

فالإصلاح تحسين وضع، و تعديل، وانتقال نحو الأفضل، وتغيير ما به من اعوجاج والإحسان فيه، أوإرجاع الشيئ إلى حالةاعتداله .

2.1 الإصلاح الديني :

هو اجتهاد بشري يتسم بالنسبية طالما أنه يعبر عن اجتهادات فردية وهو ليس الدين، لأنه (أي الإصلاح الديني) مرتبط بأفهام تختلف في الواقع والزمان والمكان، وهو أطروحة لإصلاح الدين ليس بمنأى عن المساءلة والنقد، ولا ينبغي التسليم بها دون البحث في خفاياها ومراجعة قبليات أصحابها، ولايجوز اختزال الدين في بعض صورالتدين، أو في فئة معينة من المتدينين، بينما الدين مصدر تعاليمه إلهي، وفهمنا له هوالذي ينبغي أن يتغير ويتجدد، وتبعا لذلك وجب التمييز بين الإصلاح الديني والدين، وينطبق ذلك على كل فكر ديني ومنه الإسلامي والمسيحي واليهودي ...

3.1 الفكر:

يقصد بالفكر « إعمال العقل الخاطر في الشيء »،[5] و « في المعلوم للوصول إلى معرفة مجهول »،[6] و « يستعمل الفكر في الأمور المعنوية.. للوصول إلى حقيقتها ».[7] ويقال رجل فِكّيرٌ : كثير الفكر.[8]

والفكر « قوة مطردة للعلم إلى معلوم، وجولان تلك القوة بحسب نظر العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان »،[9] وهو « اسم لعملية تردّد القوى العاقلة المفكرة في الإنسان، سواء أكان قلبا أو روحا أو ذهنا، بالنظر والتدبر لطلب المعاني المجهولة من الأمور المعلومة ».[10]

والفكر أداة وآلية يدرك بها الإنسان حقائق الأمور، وهو تصورات وأحكام ورؤى حول القضايا المطروحة، تجعل الإنسان قادرا على التعامل مع العالم الذي يعيش فيه بهدف تحقيق أهدافه المطلوبة وغاياته المنشودة .

4.1 الفكر الإسلامي :

يقصد بالفكر الإسلامي كل ما أنتجه الفكر الإسلامي منذ بعث النبي محمد عليه الصلاة والسلام إلى اليوم في المعرفة المتصلة بالله والكون والإنسان، في ظل الدين الإسلامي الذي أنزله الله على الرسول محمد عليه السلام خاتم النبيين، وهو آخر الرسالات السماوية.

والفكر الإسلامي اجتهاد بشري من فلسفة وفقه وتصوف وكلام..،[11] مرتبط بالوجود والطبيعة والعلاقات والحياة حددتها الشريعة الإسلامية ،[12] ومتوافقة مع « قيم الإسلام و

معاييره و مقاصده »،[13] وما ينتجه العقلُ المسلم من خلال استناده إلى نصوص الكتاب فيوصف هذا الفكر بأنه فكر إسلامي.[14]

وتبعا لذلك فإننا هنا نميز بين النّص الدّيني وفهم النص، حيث أنّ فهم النّص ليس دينا، باعتبار أنّ هذا الفهم يمكن أن يكون صائبا كما يمكن أن يكون خاطئا، وأنّ القصور في ذلك لا يعني قصورا في الدّين، فهناك فرق بين الدّين كوحي ربّاني يشكل نظريّة حياة متكاملة خالدة، وبين إخفاق المسلمين في ترجمة النّظريّة إلى واقع حضاري، « والحاجة تدعو إلى قراءة صحيحة للنّص الدّيني تنأى عن التعصّب والدّغمائيّة وتقبل الأخذ والردّ وتتّسم بالموضوعيّة والواقعيّة ».[15]

2. جوانب من الإصلاح الديني في الفكر الإسلامي :

سادت الحضارة الإسلامية خلال مراحل طويلة العالم، فسمت نفوس المسلمين، واتجهت هممهم العالية، وأهدافهم السامية، وتفكيرهم الخصب، لنشر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها فامتدت رقعة الدولة الإسلامية ونهضت، وعاش الناس في ظلها في عدل ومساواة وأمن وأمان ورخاء واطمئنان، وليواجه العالم الإسلامي بعد ذلك أزمات مختلفة تختلف في حدة تأثيرها، ولكنه لا يلبث أن يستعيد حيويته من جديد في اتجاه تهيئة أنظمة التفكير الإسلامي الموروثة للظروف الجديدة، وتجنب الضعف والجمود والتخلف، والسعي إلى تحقيق الإصلاح المنشود، ومنه الإصلاح الديني .

وعليه تتأكد الحاجة إلى معرفة نماذج من الإصلاح الديني في الفكر الإسلامي الساعية إلى تطوير مسار المشروع الحضاري في العالم الإسلامي، وتتبع مساره والكشف عن جوانبه .

1.2 نفحات من الإصلاح الدّيني في العهد الراشدي :

أرسل الله تعالى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم برسالة سماوية لدين جديد هوالإسلام إلى الأمة جمعاء، و بعدما أمر الله رسوله بالهجرة إلى المدينة المنورة،أسس عليه الصلاة والسلام الدولة الإسلامية التي أنارت العالم كله، وشهد لها القاصي والداني بالتقدم العلمى والعسكرى والحضارى... وتبوأت الدولة وقتها مكانتها اللائقة بها، حيثبدأ عليه السلام في وضع الأسس التي تجعل المجتمع قويًّا متّحدًا وأولها بناء مسجد قباء وجعل منه بيتًا للمسلمين يجتمعون فيه للعبادة والمشاورة فيما يهم أمر الإسلام والدولة الإسلامية،

ويتخذون فيه قراراتهم، ويناقشون فيه مشاكلهم ويستقبلون فيه وفود القبائل وسفراء الملوك والأمراء.. ونشر دين الله القويم.

وبعدما انتهى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من بناء مسجد قباء، بدأ بتوحيد القلوب وتمتين العلاقات بين أهل المدينة المنورة، والذين لُقبوا بـ"الأنصار"، والمهاجرين الذين صبروا على أذى كفار قريش، وتركوا بيوتهم وأرضهم وممتلكاتهم نصرة لدين الله، فجعل النبى عليه السلام كل واحد من المهاجرين أخًا لواحد من الأنصار، وكان مثالا يُحتذى به فى التضحية والعطاء والمحبة لإخوانهم المهاجرين .

ولا يخفى على أحد الحرب التى خاضتها قبيلتا الأوس والخزرج مع بعضهما البعض لمدة وصلت إلى أربعين عامًا، وقد عُرفت باسم حرب " بُعاث"، وقتل فيها عديد من الأبرياء، وعلى رأسهم الأطفال والنساء والعجائز وغيرهم، لذلك فقد كانت تلك الخلافات الكبيرة بين القبيلتين اللتين هاجرتا بعد انهيار سد مأرب إلى "يثرب" تقف حجر عثرة أمام تأسيس النبي الكريم للدولة الإسلامية القوية، لكن حكمته صلى الله عليه وسلم تغلبت على تلك الخلافات والحروب التي لم تكن قد جفَّت دماؤها بعد، حيث استطاع عليه الصلاة والسلام عقد اتفاق مؤاخاة بين الأوس والخزرج، حيث ذكَّرهم بالرابط الأساسي فى هذا الدين الجديد الذي بُعث به هو العقيدة، ودعاهم إلى أن يكونوا إخوة في الله، ولامس الرسول صلى الله عليه وسلم وتر صدق إيمان الأنصار، فهداهم الله لكلامه وتقاربت القلوب، وأصبح أعداء الأمس إخوان اليوم، وقاتل الأوس والخزرج جنبا إلى جنب في ضد المشركين مع إخوانهم من النصار والمهاجرين.

وتُعتبر وثيقة المدينة الوثيقة العادلة الحكيمة دستورًا ليس لأهل المدينة المنورة وحدهم بل لكل المسلمين، حيث احتوت بنودها نقاطًا توضح عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم معاهدة مع اليهود وغيرهم من الوثنيين الموجودين فى المدينة، حيث أمَّنهم فيها على أرواحهم، ودينهم وأموالهموأديرتهم، وكان أساس هذه المعاهدة الأخوَّة فى السلم، والدفاع عن المدينة وقت الحرب، وهذا يجلّي سماحة النبى عليه السلام القائد والزعيم الذى وحَّد الفرقاء، وأصلح بينهم، وألَّف قلوبًا مزقتها الخلافات، كما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم وفودا ورسلالنشر الإسلام .

وتواصل هذا النهج المحمدي مع الصحابة ومن بعدهم، في نشر دين الله القويم وإصلاح أحوال الناس في مختلف المجالات، مما جعل الدول والأمم تحاول تقليد المسلمين، والتأثر بهم، والاستفادة منهم في مختلف المجالات من ناحية، كما عملوا على النيل من الإسلام وذلك بتشكيك الناس في دينهم وأركانه وأسسه من ناحية أخرى، وهذا ما جعل أبو بكر الصديق رضي الله عنه (632م - 634م) يسعى إلى المحافظة على تماسك ووحدة الدول الإسلامية، والدفاع عن الدين وتعاليمه وأركانه، حيث تمكن من هزيمة تمرّد العديد من القبائل العربية التي رفضت آداء الزكاة، والذين أعلنوا خروجهم عن الإسلام بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم (فيما يعرف بحروب الردة)، كما استند الصديق رضي الله عنه إلى القرآن والسنة والإجماع ومشورة أصحابه في بعض المسائل في حكم القضاء، وأمر بجمع القرآن بعد قتل الكثير من حفاظ القرآن الكريم في حروب الردة بعد أن أشار عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بجمع القرآن في مصحف واحد، فضلا عن مواصلته نشر الإسلام وفتح كامل امبرطورية الفرس خلال أقل من سنتين، وتمكن بذلك من الحفاظ على تماسك ووحدة الدولة التي كان حجمها يتنامى يوما بعد يوم ويزداد عدد سكانها وتتنوع أعراقهم.

كما واصل عمر بن الخطاب (634م - 644م) إنشاء بيت المال لجمع الأموال الفائضة عن الحاجة، فكانت موارده تشمل الزكاة والجزية والصدقات، أما نفقاته فهي رواتب الجند والموظفين، وأسس التقويم الهجري، وجدد وجوب الحساب من سنة هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة المنورة، ومنع استخدام أيّ تقويم آخر، كما عُرف رضي الله عنه بعدله بين الناس،وإنصافه للمظلومين سواء كانوا مسلمين أو غيرهم، ولهذا سُمّي بالفاروق لتفريقه بين الحق والباطل، وأسس السجون لحبس المتورطين بالسرقة، وتوسع نطاق الدولة في عهده، وتمكن من أدخال القدس لأول مرة تحت حكم المسلمين.

كما أنشأ الخليفة عثمان بن عفان (644م - 656م) أول أسطول بحري لحماية الشواطئ الإسلامية من هجمات البيزنطيين، كما أرسل أول مبعوث إسلامي رسمي للصين سنة 650م، وبالرغم من أن المبعوث لم يتمكن من جعل الإمبراطور الصيني يعلن إسلامه لكنه حصل على تصريح لنشر الإسلام في الصين وإقامة أو مسجد فيها، وشكل لجنة لكتابة نسخ متعددة من القرآن الكريم، وقام بتوسعة المسجد الحرام والمسجد النبوي سنة 650م، عندما ازداد عدد الناس بعد شراء الرقعة المجاورة للمسجد.

وواصل علي رضي الله عنه الخليفة الرابع (656م-661م)، الذي كان أكثر علماء عصره علما وفقها وشجاعة وفصاحة وحكمة، مسيرة سابقيه في الإصلاح والدعوة إلى دين الله ونبذ الشرك، ومحو آثار الجاهلية بطمس التماثيل المعبودة، وتقديس القبور، ومنع الاعتقاد بالكواكب، وأبقى على القضاء المستند على القرآن والسنة، واعتمد الإجماع بالمشاورة مع أصحابه، والاجتهاد في بعض المسائل وغيرها من الإصلاحات الدينية المهمة.

وما يمكن استنتاجه تميز مرحلة حكم الخلفاء الراشدين بتحقيق العديد من الإصلاحات الدينية وبالعدل والحق والزهد، والابتعاد عن مباهج الحياة وشهواتها، وبعد وفاة علي ابن أبي طالب رضي الله عنه طويت مرحلة العهد الراشدي أو عهد الخلفاء الراشدين ليبدأ العهد الأموي بحكم الخليفة معاوية بن أبي سفيان، والذي أصبح الحكم بعده وراثيا، بعد أن كان اختيار الخليفة شورى بين المسلمين.

2.2 شذرات من الإصلاح الديني في الدولة الأموية والعباسية والعثمانية :

يُعَدُّ الخليفة عمر بن عبد العزيز من أفضل الخلفاء الأمويين سيرة وعدلا وزهدا وورعا وردا للمظالم، التي كان أسلافه من بني أمية قد ارتكبوها، وأخذ منهم ما في أيديهم من مال وأعادها إلى بيت مال المسلمين، ووصفها بأنها "مظالم "، وعزل جميع الولاة الظالمين وعاقبهم، كما أعاد العمل بالشورى، فعده مثير من العلماء بخامس الخلفاء الراشدين، ويراه آخرون أنه المجدّد الأول في الإسلام، كما اهتم عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه بالعلوم الشرعية، وأمر بتدوين الحديث النبوي الشريف، كما بنى المساجد وحكم بعودة الأراضي المغتصبة غير المسجلة أي بيت مال المسلمين واتسعت إصلاحاته المختلفة في القضاء على الفقر في إغناء الدولة الإسلامية، توفي سنة (101 هـ-730م) .

كما تميز الخليفة العاشر هشام بن عبد الملك في العهد الأموي بذكاء وكفاءة عالية، مكن من الحفاظ على وحدة الدولة واستقرارها طيلة عهد طويل، وبلغت فيها الدولة الأموية ذروة اتساعها وأقصى حدودها، حيث امتدت من أطراف الصين شرقا إلى جنوب فرنسا غربا .

ولئن كان عصر الخلفاء الراشدين والأمويين عصر نمو وتأصل وترابط وفتوحات، فإن العصر العباسي كان عصر الحضارة الإسلامية إذ حرص خلفاؤه مثل الرشيد والمأمون على تشجيع العلم ودفع عجلته إلى الأمام وتجسيما لهذا المنهج كان هارون الرشيد يقبل الجزية

كتبا، وكان المأمون يزن كل ما يترجم ذهبا،[16] كما اعتنى الخلفاء العباسيون بدور العلم والمعرفة مثل دار العلم بالموصل، والجامع الكبير في صنعاء، ودار الحكمة في القاهرة وبيت الحكمة في بغداد ، فصارت تلك المراكز العلمية جامعات يقبل عليها طلاب العلم من جميع أنحاء العالم،[17] حيث قام الخليفة العباسي هارون الرشيد (766م-809م)، بإصلاحات في المجال الديني ومنها بناء المساجد الكثيرة، وتوسيع رقعة الدولة بالفتوحات لنشر الإسلام خصوصا في القوقاز وآسيا الوسطى والأناضول .

كما تفرد عهد المأمون (784 م - 833م) بنهضة حضارية كبيرة، وتشجيع العلوم من فلسفة وطب ورياضيات ومختلف علوم اليونان، وأسس جامعة الحكمة في بغداد سنة 830م، والتي كانت من كبرى جامعات عصرها، وقد تكون عمليات الترجمة التي رعاها هو وحاشيته وولاته، أبرز سمات عهده وازدهاره، إذ نقلت خلالها العلوم والآداب السريانية والفارسية واليونانية، فاكتسبت من خلاله اللغة العربية مكانة مرموقة وهي لغة القرآن الكريم، كما أسهمت عملية الترجمة في إرساء منسوب ثقافي وفكري عال في الدولة فضلا عن الانفتاح على المعتقدات الدينية الأخرى .

ويعتبر عصر السلطان سليمان القانوني عصر الدولة العثمانية الذهبي، وتبوأت الدولة العثمانية خلال فترة حكمه أعظم مكانة بين امبراطوريات العالم آنذاك بالنسبة لقوتها ومكانتها في العالم ، وتعد فترة حكمه من أطول فترات الحكم في الدولة العثمانية حيث امتدت لمدة 46 عاما من سنة 1520م إلى 1566م، وكان يُعرف في الغرب باسم سليمان العظيم، حيث امتدت الدولة وتوسعت وبسطت نفوذها في آسيا وأوروبا وإفريقيا، وتطورت نظمها وقوانينها في توافق مع تعاليم الإسلام، وارتقى الأدب والفن وتطورت العمارة وازدهر البناء.

وبعد العصر الذهبي الذي مرت به الدولة العثمانية أصيبت بعده بالتراجع شيئا فشيئا، وعانت طويلا من الخمود والركود الحضاري، فيما أخذ خصومها في التفوق عسكريا وعلميا وفي مقدمتها النمسا وروسيا آنذاك .

وفي كل فترة من الأزمات والإحباطات والضعف وككل حضارة في حركة التاريخ، تبرز قيادة جديدة تحمل المشعل للإصلاح فبزغ فجر جديد للأمة العربية حث على التجديد والاجتهاد والنهضة والإصلاح، وظهر علماء ومفكرون مصلحون منهم محمد عبده ورفاعة

رافع الطهطاوي وخير الدين التونسي وجمال الدين الأفغاني وعبد الرحمان الكواكبي وغيرهم... كان هاجسهم الخروج من حالة الضعف والتخلف، والجمود والتقليد، والبدع والخرافات، والتواكل واليأس، و دعوا إلى تحقيق الوحدة والحرية والكرامة، والتخلص من الاستبداد، والسعي إلى الاجتهاد، والأخذ بالعلوم، وتحقيق التوازن بين النقل والعقل، والمزاوجة بين الأصالة والحداثة، بهدف تحقيق النهوض والتقدم .

3.2 نماذج من الإصلاح الديني في القرن التاسع عشروبعده :

في كل مرة و بعد انتصارات العالم الإسلامي في مراحل من تاريخه، وبعد أن استطاع المسلمون أن يكتسبوا علوما من عدة مصادر فأتقنوها وأضافوا إليها وعملوا على نشرها في مختلف أنحاء العالم، وظلت حركتهم الفكرية مزدهرة طيلة خمسة قرون أي اعتبارا من بداية القرن الثاني الهجري (بداية القرن الثامن الميلادي) إلى نهاية القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، لكن العالم الإسلامي بدأ بعد هذه الفترة مرحلة أخرى اتسمت بالتدهور دامت خمسة قرون،[18] وليمر بأزمات وتراجع وضعف.

لقد طرأت على المسلمين عوامل اجتماعية وسياسية وفكرية أدت إلى اضطراب قياداتهم في الحكم وفي العلم، فدبت الفوضى في التشريع والاجتهاد، وانحلت الدولة وماتت روح الاستقلال لدى العلماء الذين عاشوا عالة تقليد السابقين إذ حصروا عقولهم في دائر محدودة من فروع مذاهب الأئمة وأصولها، وبذلوا جهودهم في ألفاظ أئمتهم وعباراتهم لا في نصوص الشارع ومبادئه العامة.[19]

وفي المقابل استطاعت أوروبا خلال فترة تدهور العالم الإسلامي وبالتحديد بداية القرن السادس عشر للميلاد أن تستيقظ من جهلها وتُرسي مشروعا مستنيرا مؤسسا على العلم والفلسفة وتحرير الفكر وتنادي بحداثة ذات نظرة متحررة ومحررة للإنسان من أسر الطبيعة ومن قيود الماضي بعاداته وتقاليده محسنة التعامل مع النص التراثي وجاعلة العقل أساسا للمعرفة.[20]

وفي القرن التاسع عشر للميلاد انتبه المسلمون إلى حقيقة الوضع فبادروا برفع لواء التحديث نتيجة عوامل خارجية،[21] وأخرى داخلية،[22] مرتبطة بخصوصيات كل بلد من العالم الإسلامي لقد أدرك رجال الإصلاح ما حدث من تطور في العالم الغربي، وقد بات من الضروري لديهم المناداة بالانفتاح على الحضارة الغربية ومحاولة الاستفادة منها وذلك بتعلم

لغاتها قصد استيعاب علومها وتمثل معارفها دون تجاوز خصوصيات القيم الأصيلة في الحضارة الإسلامية.

وتجسيما لذلك جاءت مواقف رجال الإصلاح خلال القرن التاسع عشر للميلاد محددة مسألة التفاعل مع الغرب وحاثة عليه ومن هؤلاء المفكرين المصلحين رفاعة رافع الطهطاوي وخير الدين التونسي وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمان الكواكبي .

اهتم رفاعة رافع الطهطاوي (1801م- 1873م) في مشواره الفكري بمجال التربية والتعليم، ودعا إلى تمكين المرأة من دورها في المجتمع، وحث على عدم الفصل بين الجانب المادي والروحي، وبين النقل والعقل، وبين الأصالة والحداثة، أي بين أصالة الفكر الإسلامي وروح العصر وأهمية ذلم في بناء شخصية الإنسان وتحقيق سعادته، حيث قال: « فمخاطبة الأغراب لاسيما إذا كانوا من أولي الألباب تجلب للأوطان المنافع العمومية والبلاد الإفرنجية مشحونة بأنواع المعارف والآداب التي لا ينكر إنسان أنها تجلب الأنس وتزين العمران ».[23]

كما احتل الفكر السياسي الغربي حيزا مهما في فكر الطهطاوي وفي كتاباته وأعماله الأدبية من أهمها كتابه "تلخيص الإبريز"، وكتاب " منابع الألباب العربية في مناهج الآداب العصرية "، فبين تصوره لنظام الحكم، وفصل السلطات، وسيادة القانون، والحريات الفردية والعامة، والحقوق والواجبات .

ولفت الطهطاوي النظر إلى أن الإسلام سبق القوانين الوضعية بتعاليمه ونظمه وقيمه ومبادئه من ذلك أن ما جاءت بها فلسفة الأنوار من مبادئ أغلبها لها جذور تاريخية في الفكر العربي الإسلامي، غير أنها أخذت طابعا غربيا جديدا، مشيرا إلى أن المسلمين أولى بالاستفادة من هذه القيم لتجنب الجمود والضعف وتحقيق النهضة والإصلاح والتقدم والرقي .

ويرى المفكر المصلح خير الدين التونسي (1820 م- 1890م)، صاحب التجربة والخبرة السياسية، أنه من الحكمة الأخذ عن الغرب العلوم والتقنيات والمعارف، ونُظم وتراتيب الإدارة والجيش، حتى ولو كان مخالفا لنا في الدين، حيث قال : « وكل متمسك بديانة وإن كان يرى غيره ضالا في ديانته قد لا يمنعه من الاقتداء به يقتدون بغيرهم في كل ما يرونه حسنا من أعماله حتى بلغوا في استقامته نظام دنياهم إلى ما هو مشاهد وشان الناقد البصير تمييز الحق بعبارة النظر في الشيء المعروف عليه قولا كان أو فعلا فإن وجده صوابا قبله واتبعه

سواء كان صاحبه من أهل الحق أو من غيرهم فليس بالرجال يعرف الحق بل بالحق يعرف الرجال ».[24]

كما اعتبر خير الدين التونسي أن تأسيس مجتمع حديث يتوقف على إصلاح النظام السياسي، واعتماد مبدأ الشورى، والتوزيع العادل للثروة، وإشاعة مبادئ الحرية والمساواة وثقافة الحقوق والواجبات في المجتمع، وأرجع أسباب تخلف المسلمين إلى عدم مواكبة الفكر الإسلامي لتطور العصر، وعدم إلمام حكام المسلمين بأمور الدين، في إشارة منه إلى أهمية تكامل الدين والسياسة ، وأن التكامل بينهما يكون بتعاون العلماء ورجال السياسة من أجل حفظ ثوابت الدين وعدم التفريط في ما ينفع المجتمع من أمور الدنيا

لقد مهد رفاعة رافع الطهطاوي وخير الدين التونسي لمرحلة جديدة في الفكر الإسلامي تجسدت في ظهور تيار الوحدة، ومن أبرز قادته السيد جمال الدين الأفغاني (1838م-1897م)، الذي يرى أن السبيل الوحيد للتخلص من الاستبداد يكون بنشر ثقافة الوعي بالحرية والكرامة، وترجم ذلك بالعمل السياسي على أرض الواقع من خلال الصحافة والكلمة والثورة الآلية المتاحة للأفغاني لنشر أفكاره وآرائه .

كما انبنت الرؤية الإصلاحية لجمال الدين الأفغاني على منهج التأويل بما يتماشى مع روح الحداثة وضرورات العصر، ودعا إلى الإجتهاد، وتنقية الفكر من البدع والفهم المغلوط للنصوص، عدم الفصل بين العلم والدين، وتجنب التقليد والتواكل واليأس، وحث على العمل والإبداع .

كوّن جمال الدين "جماعة العروة الوثقى"، خلال سفره إلى أوروبا، وأصدر جريدتها وشاركه محمد عبده في مشروعه في بدايات التأسيس، وكان ذلك في ظل وضع صعب وتحديات كبيرة، تمثلت في الاستعمار الغربي، فحث على الحرية والكرامة والوحدة، ودعا إلى تحقيق استقلال البلاد، والتخلص من النفوذ الاستعماري، واستبداد الملوك وأولي الأمر وسطوتهم على شعوبهم .

اختلف الشيخ محمد عبده (1849م-1905م) في رؤيته الإصلاحية منهجا وأسلوبا مع المصلح جمال الدين الأفغاني، فاعتبر أن السبيل إلى الإصلاح ليس بالثورة، وإنما بالتربية والتعليم باعتبارهما السبيل للخروج من التخلف والجمود وتحقيق النهوض، مُنبّها إلى خطورة السياسة التعليمية والتربوية للاحتلال من خلال المدارس الإنجليزية خاصة، لافتا النظر إلى

خطر تغييب دور الأزهر التربوي والتعليمي المؤدي إلى نتائج كارثية على الهوية والثقافة واللغة، وإلى الذوبان والانحلال الحضاري للأجيال الحاضرة واللاحقة، حيث يقول المصلح محمد عبده : « إن الذين يرومون الخير الحقيقي لوطنهم يجب أن يوجهوا اهتمامهم إلى إتقان التربية ونشر التعليم إذ أن إصلاح نظام التربية التعليم في البلاد يجعل وجوه الإصلاح الأخرى أكثر يسرا ولكن الذين يتخيلون أن نقل أفكار الغرب وعاداته إلى بلادهم سيصل بها بعد زمن وجيز إلى درجة من المدنية تماثل مدينة الغرب هؤلاء يخطئون خطأ كبيرا فهم يبدؤون بما هي في الحقيقة نهاية تطور طويل المدى.. ويظهر لنا التاريخ الدول الأوروبية أنها لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بعد أن صهرت بوتقة الزمن عقليتها وساقتها ضرورات الحياة إلى يقظة عيها وأدى الصراع الحربي والاقتصادي بينها إلى تطور الفكر فيها ».[25]

إن السبيل الأمثل للنهضة والإصلاح وتغيير نظم الحكم وتحسين إدارة دواليب الدولة في نظر الشيخ عبده، يتمثل في التربية وتنشئة الأفراد على حسن الخلق والوسطية والاعتدال والفكر المتوازن، وجسد ذلك من خلال إدخال إصلاحات في المناهج التعليمية في الأزهر، ومنها دراسة الفلسفة وعلم المنطق، داعيا إلى تحرير الفكر وإعطاء قيمة للعقل كما دعا إلى المزاوجة بين العقل و الوجدان، وبين الفلسفة والتصوف .

كما كان فكر المصلح عبد الرحمان الكواكبي (1855م- 1902م) امتدادا لفكر المصلحين السابقين، وليقدم تصورا للخروج من التخلف وسبل معالجته، وتركزت رؤيته الإصلاحية أساسا على ظاهرة الاستبداد السياسي وأثاره السلبية على المجتمع، داعيا إلى الوحدة العربية والإسلامية، وإلى ضرورة فتح باب الاجتهاد، وترك التقليد، ومزج الأصالة بالحداثة والأخذ بالعلوم والمعارف، لتحقيق الرقي والتقدم .

خاتمة :

لم يتوقف الإصلاح الديني في العالم الإسلامي عند المصلحين الذين أبرزنا جوانب من إصلاحاتهم، بل تواصلت المسيرة بعدهم جيلا بعد جيل، من أجل إصلاح ما آل إليه أَمرُ أُمَّة أريد لها الرّيادة والقيادة في الأرض، أُمَّة تناست دورها ومسؤوليتها في بناء الحضارة الإنسانية وقنعت بالخنوع والاستسلام .

وما يمكن التوصل إليه في ختام هذا البحث جملة من النتائج من أهمها :

- الحاجة إلى التعرف على نماذج من الإصلاح الديني في الفكر الإسلامي للبناء عليها.

- قيمة مواصلة جهود الإصلاح الديني بهدف الخروج من التخلف والفشل والتقليد ومحاولة فهم أسباب ذلك وتفسيرها، وإعادة فتح أبواب الاجتهاد من أجل تهيئة أنظمة التفكير الإسلامي الموروثة للظروف الجديدة .

- أهمية تطوير مسار المشروع الحضاري في العالم الإسلامي بهدف تحقيق الوحدة والاجتماع على كلمة سواء في اتجاه التطبيق والممارسة للرؤى والتصورات والمبادرات الإصلاحية في المجال الديني وفي غيرها من المجالات الأخرى .

- تشجيع العلم والمعرفة، والعناية بالمراكز والجامعات وتطوير مناهجها العلمية والحث على الاجتهاد وتجنب التقليد، و عدم حصر العقول في دائرة محدودة من فروع مذاهب الأئمة وأصولها، وفي ألفاظ الأئمة السابقين وعباراتهم، لا في نصوص الشارع ومبادئه العامة .

- أن جهود الإصلاح في مختلف المجالات ومنها الإصلاح الديني قد انطلقت بهدف البحث في أسباب تأخر وتخلف المجتمعات العربية والإسلامية، وما زالت الجهود والمبادرات الإصلاحية ومنها التي انطلقت في القرن التاسع عشر في العالم الإسلامي ملهمة للإصلاح والفكر الإصلاحي إلى اليوم ويجري بحثها واستعادتها على نطاق واسع في مجالات الفكر والدراسة والبحث .

وعليه وفي ضوء النتائج المذكورة نبني عليها التوصيات الآتية :

- إن تطوير مسار المشروع الحضاري في العالم الإسلامي لا يجب أن يكون منصبّا فحَسْب على إبراز رؤى وتصورات وأفكار العلماء والمصلحين في المجال الديني بل يتعداه إلى ضرورة توحيدها والاجتماع على كلمة سواء في اتجاه التطبيق والممارسة .

- الحاجة إلى مزيد إبراز رؤى وأفكار وجهود العلماء والمفكرين المصلحين في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغيرها .

- ضرورة أن تتواصل الجهود والمبادرات الإصلاحية قديما وحديثا ومنها التي انطلقت في القرن التاسع عشر في العالم الإسلامي ملهمة للإصلاح والفكر الإصلاحي إلى اليوم .

وبعد مرور قرون على المشروعات والمبادرات والجهود الإصلاحية، ألا يحق التساؤل أولا : عن أسباب تواصل ضعف المجتمعات العربية الإسلامية رغم جهود رواد الإصلاح المتتالية والمتواصلة ؟ وثانيا : أليس العالم المتقدم اليوم يشهد تحولات كبرى لا تقلّ

أهمية وجذرية عن الثورة الصناعية والرقمية التي تحتاج إلى مبادرات إصلاحية ورُؤى فكرية جديدة ؟

المصادروالمراجع :

- **الكتب :**

1. أمين أحمد، (دون تاريخ)، عوامل ضعف العالم الإسلامي، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

2. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى، تـ279، (1996)، سنن الترمذي، دار الغرب الإسلامي بيروت، كتاب الاستئذان، 22، باب في تعليم السريانية، حديث رقم: 2858.

3. التفسير الميسر ،ج : 1.

4. التونسي خير الدين، (2012)، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، دار الكتاب اللبناني، بيروت .

5. الراغب الأصفهاني، (1992)، مفردات ألفاظ القرآن، مادة (فكر)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط:1، دار العلم، دمشق، والدار الشامية ببيروت.

6. الزبيدي، محمد بن محمد بن مرتضى الحسيني، (1969)، تاج العروس من جواهر القاموس،، دار إحياء التراث، الكويت.

7. الشافعي، حسن، (1989)، في فكرنا الحديث والمعاصر، طبعة دار الثقافة، القاهرة .

8. الطبري، أبي جعفر محمد بن جرير، (2001)، تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ط: 1، القاهرة، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ج : 24.

9. الطهطاوي، رفاعة رافع، (2010) الأعمال الكاملة، ط: 1، دار الشروق، القاهرة، ج: 1 .

10. أبو العباس شهاب الدين، أحمد بن محمد بن عماد، (1423ه)، (ت: 815 ه)، التبيان في تفسير غريب القرآن، ط: 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت .

11. عبد الحميد،محسن،تجديد الفكر الإسلامي، وما بعدها، دار الصحوة، القاهرة، مصر.

12. العلواني، طه جابر، (1994)، الأزمة الفكرية المعاصرة تشخيص ومقترحات علاج، ط: 4، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض.

13. فرحات،أحمد حسن، (1996)، مصطلح الفكر الإسلامي،ضمن ندوة "الدراسة المصطلحية والعلوم الإسلامية"، ج: 2، معهد الدراسات المصطلحية، بكلية الآداب ظهر المهراز، فاس، ط : 1.

14. ابن الفرضي، (1954)، تاريخ علماء الأندلس، القاهرة .

15. عثمان (فتحي)، (دون تاريخ)، الفكر الإسلامي والتطور، دار القلم القاهرة.

16. العامري ،أبو الحسن، (ت : 381 ه)، (2006)، الإعلام بمناقب الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

17. المحافظة، علي،(1975)،الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت.

18. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم،(ت:711ه)،(2004)،لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ج: 4.

19. مقاييس اللغة، (1411ه- /1991م)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، عن دار الجيل، ط: 1، مادة (فكر)، ج:4.

20. أنيس إبراهيم، وآخرون،(دون تاريخ)، المعجم الوسيط، طبعة المكتبة الإسلامية إستانبول، تركيا، ط:2، ج:2، مادة (فكر)، ص:698.

21. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم،(دون تاريخ)، محمد فؤاد عبد الباقي، عن المكتبة الإسلامية، إستانبول، تركيا، مادة (فكر).

22. الهروي، محمد بن أحمد،(ت: 37 ه)، (2001)، تهذيب اللغة، ط: 1، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

23. أبو اليزيد، العجمي، (1988)، الفكر الإسلامي ومناهج التعليم، مؤتمر طه حسين، جامعة المنيا . مصر.

- **الصحف والمجلات والبحوث :**

1. أبو ريدة، محمد،(10/6/ 1989م)، أمهات المسائل في الفكر الإسلامي، بحث منشور في جريدة القبس الكويتية.

2. انميرات، عبد العزيز، (1997/01/10) ،مفهوم الفكر الإسلامي، مقاربة تأصيلية، ملحق الفكر الإسلامي، لجريدة العلم، ،السنة: 6.

3. التّميمي، محسن، (السنة: 31، صفر، شوال 1427ه / مارس، نوفمبر 2006 م)، الخطاب الدّيني المعاصر الأسس والمرتكزات، مجلّة الهداية، العدد 172.

4. الدفاع، عبد الله، (1984 و1985)، استعراض التراث العلمي العربي الإسلامي، صدر في ورقات، العدد: 7 و8 .

5. الشابي، علي، نوفمبر1991، المسلمون والحداثة في عصر الحضارة العربية الإسلامية، سلسلة آفاق إسلامية، العدد: 2، الوزارة الأولى .

6. عبد الكافي، إسراء عمر أحمد، (2011)، دور القيادة في الإصلاح السياسي في العلاقة ما بينت الفكر والممارسة مع التطبيق على نموذج عر بن عبد العزيز، ماجستير جامعة القاهرة ،كلية العلوم القانونية والعلوم السياسية.

7. عطية،إبراهيمعبد السلام،(2015/2013)،المجتمع المدني والإصلاح السياسي في ماليزياماجستير جامعة القاهرة، كلية العلوم القانونية والعلوم السياسية،2017.

الهوامش :

[1] - مصدر سابق ابن منظور، لسان العرب، ج: 3، ص: 422 . الهروي (محمد بن أحمد)، (ت 37 ه)، 2001، تهذيب اللغة، ط: 1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص : 4.

[2]- إبراهيم، عطية عبد السلام، (2013،/2015)، المجتمع المدني والإصلاح السياسي في ماليزيا ، ماجستير جامعة القاهرة كلية العلوم القانونية والعلوم السياسية،2017، ص: 43.

[3]-ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم)، ص: 6 . الزبيدي محمد بن محمد بن مرتضى الحسيني(1969)، تاج العروس من جواهر القاموس،دار إحياء التراث، الكويت، ص: 9.

[4]- عبد الكافي، إسراء عمر أحمد، (2011)، دور القيادة في الإصلاح السياسي في العلاقة ما بينت الفكر والممارسة مع التطبيق على نموذج عر بن عبد العزيز، ماجستير جامعة القاهرة ،كلية العلوم الق والعلوم السياسية، ص: 11-12.

[5] - مصدر سابق، لسان العرب، ابن منظور، مادة (فكر).

[6] - أنيس إبراهيم، وآخرون،(دون تاريخ)، المعجم الوسيط، طبعة المكتبة الإسلامية إستانبول، تركيا، ط:2، ج:2، مادة (فكر)، ص:698.

[7]- المصدر نفسه، أنيس إبراهيم، وآخرون، ص:698.

[8]-مقاييس اللغة، 1411ه /1991م، تحقيق عبد السلام محمد هارون، عن دار الجيل، ط:1، مادة "فكر"، ج:4، ص:446.

[9] - الراغب الصفهاني، 1412ه/1992م، مفردات ألفاظ القرآن، مادة "فكر" ، تحقيق صفوان عدنان داوودي، ط: 1، دار العلم، دشق، والدار الشامية، بيروت، ص: 83-643.

[10] - العلواني،طه جابر، (1994)، الأزمة الفكرية المعاصرة تشخيص ومقترحات علاج، ط: 4، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، ص:27.

[11] - عبد الحميد محسن، تجديد الفكر الإسلامي، دار الصحوة، القاهرة، مصر، ص : 18.

[12]- انميرات،عبد العزيز، (10جانفي1997)، مفهوم الفكر الإسلامي مقاربة تأصيلية، ملحق الفكر الإسلامي، جريدة العلم، السنة: 6.

[13] - فرحات،أحمد حسن،(1996)،مصطلح الفكر الإسلامي،ندوة "الدراسة المصطلحية والعلوم الإسلامية"، ج: 2، ط: 1، معهد الدراسات المصطلحية، كلية الآداب ظهر المهراز، فاس، ص: 693.

[14]- الشافعي حسن، (1989)، في فكرنا الحديث والمعاصر، طبعة دار الثقافة، القاهرة، ص: 6 . أبو اليزيد، العجمي، (1988م)، الفكر الإسلامي ومناهج التعليم، مؤتمر طه حسين، جامعة المنيا، مصر، ص:95.

[15] - التّميمي، محسن، (السنة 31، صفر، شوال 1427هـ / مارس، نوفمبر، 2006 م)، الخطاب الدّيني المعاصر الأسس والمرتكزات، مجلّة الهداية، العدد 172، ص: 56.

[16]- الدفاع، عبد الله، (1984 و1985)، استعراض التراث العلمي العربي الإسلامي، صدر في ورقات، العدد: 7، و8 ، ص: 111.

[17]- مصدر نفسه، ص: 111.

[18]- أمين أحمد، (دون تاريخ)، عوامل ضعف العالم الإسلامي، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ص: 5-6.

[19]- عثمان، فتحي (دون تاريخ)، الفكر الإسلامي والتطور، دار القلم القاهرة،ص: 142 .

[20]- الشابي، علي، (نوفمبر،1991)، المسلمون والحداثة في عصر الحضارة العربية الإسلامية، سلسلة آفاق إسلامية،العدد: 2، الوزارة الأولى، ص: 79.

[21]- من العوامل الخارجة يمكن أن نذكر التأثر بمظاهر التمدن الأوروبي وصدى الأحداث التي وقعت في بلاد العالم الإسلامي .

[22]- يمكن ذكر العوامل الداخلية : فساد الحكم تدهور الاقتصاد تجمّد الواقع التعليمي، وفساد العقليات.

[23]- الطهطاوي، رفاعة رافع (2010)، الأعمال الكاملة، ط: 1، دار الشروق، القاهرة، ج: 1، ص: 398.

[24] - التونسي، خير الدين(2012)، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، دار الكتاب اللبناني، بيروت ، ص: 90.

[25]- المحافظة (علي)، 1975، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ص: 85-86.